الاحوال الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية

ان الحياة الاقتصادية لأي مجتمع هي من الدعامات الاساسية في وجوده واستمرار بقائه، ومن هذه الدعامات هي الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية وترتبط الفعالية الرعوية وتربية المواشي بتلك الفعاليات في بعض الاحيان.

الزراعة

يغلب على طبيعة شبه الجزيرة العربية الصحاري الممتدة بمساحات واسعة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة إلا في اليمن وعمان والبحرين وهجر من المناطق الزراعية التي توفرت فيها المياه وازدهرت الزراعة فيها ، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وعلى الرغم من أن الكثير من العرب احتقروا كل من يمتهن الزراعة وفضلوا عليها باقي المهن، الا ان العديد من المدن والقرى في الجزيرة العربية عرفت بزراعتها أشجار النخيل مثل يثرب وخيبر ودومه الجندل التي كانت تشتهر أسواقها بعرض أنواع عديدة وشهيرة من التمور.

ان هذه الظروف الجغرافية القاسية لم تقف حائلا لتطور الجانب الزراعي في شبه الجزيرة العربية، ففي الامكنة التي تهطل فيها الامطار بغزارة، كما في اليمن قام العرب ببناء السدود وحفر الابار، وحبس مياه السيول لاستعمالهم في الري خلال ايام الجفاف، وحفر الابار في الوديان والواحات وبعض السهول الساحلية لاستثمار موارد المياه الجوفية، واقام المدرجات على سفوح الجبال في اليمن لمنع انجراف التربة، واستغل ارض يثرب ذات التربة البركانية الغنية وحوّلها الى واحة لزراعة النخيل والشعير، اما في المناطق القليلة المطر او تساقط غير منتظم كما هو الوضع في الحجاز ونجد واليمامة فاعتمدت الزراعة على الري بصورة اساسية.

الرعي

شكل الرعي بنوعية الثابت والمتنقل مورد اقتصادي اساسي للرعاة البدو سكان البادية، في القسم الاكبر من الجزيرة العربية، وذلك بفعل تأثير الطبيعة الجغرافية، وهي احد ركائز الاقتصاد العربي.

فالرعي الثابت هو الذي مارسه سكان بعض القرى والواحات، حيث يخرج الرعاة صباحا بالماشية الى المراعي القريبة ثم يعودون بها مساءً الى حظائرها، واما الرعي المتنقل فهو الذي مارسته القبائل العربية غير المستقرة في البوادي، والذي يعد مصدرا اساسيا لمعايشهم.

وتختلف مناطق الرعي من حيث الخصوبة والجودة بين منطقة واخرى، فتمتاز منطقة شمالي الجزيرة العربية بخصوبة اراضيها وجودة مراعيها، وتنمو في وسط الجزيرة اعشاب كثيرة وشجيرات في الحقول وفي بعض الاودية، ولكن بكثافة اقل من المناطق الاخرى وذلك بفعل قلة امطار وندرتها احيانا.

وتُعدَّ مراعي شرقي الجزيرة غنية ومستقرة وذلك بفعل ارتفاع نسبة الرطوبة وتكوُّن الندى الذي يساعد على نمو الاعشاب والنباتات، ثم ان انتشار الواحات في اسفل سفوح المرتفعات يُعدُّ عاملاً آخر ساعد على غني المراعي.

كانت اراضي المراعي وتجمعات المياه كالآبار والينابيع على نوعين، عامة وخاصة، فالمراعي العامة او المشاعية لاتدخل في ملكية أحد وانما يرعى فيها كل افراد القبيلة التي تستقر في مناطق العشب، وهو امر املته ظروف الطبيعة والتعايش معها، وشكل الاساس الذي يقوم عليه المجتمع القبلي، فكثير ما تذكر روايات المصادر ان هذا الموضع او ذاك هو مرعى لابل بني فلان، واضحى ذلك ذلك قانونا ملازما لرعاة البادية، سواءً في العصر الجاهلي او حتى بعد ظهور الاسلام، على الرغم من تقلصه واشرافه على الزوال.

فالقبائل العربية تستقر في الأماكن التي يتوفر فيها الماء وتصلح لرعي الإبل والأغنام والماعز، وعندما يشح الماء فإنها تضطر للانتقال مما يجعلها في حروب مع بعضها للحصول على المورد الأفضل.

الصناعة

لعبت الصناعة دوراً مهماً في ازدهار الحياة الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام ، فلقد توفرت لدى السكان أسباب قيام صناعات متنوعة وذلك لتوفر المواد الأولية الزراعية والحيوانية، فانتشرت الصناعات والحرف في معظم مناطق الجزيرة العربية، وبدرجات تطور مختلفة ترتبط بمدى الاستقرار والحاجة الى هذه الصناعة أو تلك ومدى توفر المواد الأولية المطلوبة للصناعة، لذا كان طبيعياً أن تكون الصناعات والحرف في المراكز الحضرية أكثر منها تطوراً في المناطق البدوية وان الصناعات والحرف التي كانت قائمة هي الصناعات الغذائية وصناعة الجلود، والصناعات النسيجية والحياكة والخياطة، والنجارة وبعض أنواع الصناعات المعدنية كالصياغة والحدادة.

ففي يثرب قامت بعض الصناعات التي تعتمد على الانتاج الزراعي مثل صناعة الخمور والمكاتل والقفف التي تعتمد جميعها على زراعة النخيل، كما قامت فيها النجارة والصناعات المعدنية مثل صناعة الأسلحة والدروع والمصوغات كالحلي وأدوات الزينة والتحف، حيث أحترف يهود بني قينقاع هاتين الصناعتين.

واشتهرت مكة بصناعة الأسلحة من رماح وسكاكين وسيوف ودروع ونبال وصناعة الفخار، من قدور وجفان وأباريق وصناعة الأسرة والأرائك، ومن الصناعات التي عرفت بمكة خياطة الثياب خاصة وأن بعض تجار مكة كانوا يستوردون البز من اليمن.

وفي اليمن اشتهرت صعده بصناعة الجلود، كما ازدهرت اليمن أيضا بصناعة النسيج والثياب كالبرود والأردية، وفي صنعاء برزت صناعة الخرز والفصوص من العقيق والجزع والذهب، كما اشتهرت بعض مناطق حمير بصناعة الأسلحة.

التجارة

إن استقرار الأوضاع السياسية نسبياً عند العرب قبل الإسلام أدى الى ازدهار النشاط الاقتصادية لاسيما في مجال التجارة، فلقد كان هناك اهتمام بالقوافل التجارية ومراقبة الطرق المؤدية الى مختلف البلدان وعقد الاتفاقيات بين القبائل لسلامة مسير تلك القوافل، ويمكن القول أن تشجيع حركة التجارة وتأمين طرق القوافل من أهم العوامل التي ادت الى زيادة الدخل.

وتكاد تكون التجارة من أهم النشاطات الاقتصادية التي تميزت بها الجزيرة العربية قبل الإسلام.

ومن المؤكد أن الطرق التجارية أدت دوراً بارزاً في حياة سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام وكانت هذه الطرق عاملاً من عوامل نشأة المدن والممالك وكثير من محطات القوافل التي تحولت بمرور الوقت الى مراكز تجارية مميزة، وقد تعود أهمية هذه الطرق ونشوء محطاتها والمدن التجارية الى عوامل قد تكون طبيعية أو تكون عوامل تاريخية ، وقد انفرد الحجاز _ الذي كان موطن الدعوة الإسلامية بموقع مركزي جيد أذ كان يحجز بين الشام واليمن ، وكان يتصل عبر طرق تمتد الى الكوفة والبحرين ودمشق ومصر واليمن مما أهله لاحتلال دور متطور في التجارة أثر تفاقم الحروب بين فارس وبيزنطة، وتضم شبه جزيرة العرب تنوعاً جغرافياً فالطبيعة فيها ليست واحدة او متماثلة في جميع ارجاءها وهذا الامر ادى الى تنشيط النواحي الاقتصادية لاسيما التجارة ولاختلاف في البيئة ادى الى تنوع طرق المعيشة.

كانت اليمن قد نشطت تجارياً واحتكرت الاتجار ببعض البضائع ، وكانت تدمر والحضر من قبل قد وجدتا بفعل الموقع التجاري، وكان لا بد لهم من الاتصال بالحضارة المجاورة ، فان الحجاز قد عرف التجارة أيضاً وكان له انفتاحه على الدول المعاصرة ، فقد كان لقريش رحلة الى الشام واليمن، وقد عقدت اتفاقيات مع القوى السياسية المؤثرة في عصرهم، مع ملوك الشام، وصاحب الحبشة، و ملوك اليمن، و ملوك العراق ، فألفوا الرحلتين في الشتاء الى اليمن والحبشة والعراق، وفي الصيف الى الشام.

ولم تكن الطائف أقل شأناً من مكة في الانفتاح على تجارب الامم والحضارات القريبة من جزيرة العرب أذ كان لها تجارتها مع العراق والشام واليمن.

والظاهرة التي تستحق أن نقف عندها ونحن نتحدث عما يرافق التجارة من فعاليات هي الربا والذي كان منتشرًا في الجزيرة العربية الذي يعني القرض بفوائد عالية، ويبدو أن الربا قد تسرب الى الحياة العربية عن طريق اليهود الذين وجدوا في المستعمرات الزراعية وفي الطائف.

وقد رافق التجارة نشاط مباشر للأسواق التي أخذت تتطور حتى أصبحت في أوج نموها في القرن السابع الميلادي، والملاحظ أن الاسواق لم تُفِدْ العرب التجار من حيث البيع والشراء فحسب، وإنما أفادت البدو الذين كانوا يأخذون جعلاً (مقابل) نظير الحماية والخفارة والخدمة في القوافل الوافدة الى الاسواق، وكانت بعض الاسواق تخضع لسيطرة بعض القبائل اذا وقعت في منطقة نفوذها، ومع أن المؤرخين العرب يختلفون في عدد هذه الاسواق فان عددها ينحصر بين ١٠-١٢ سوقا.

كانت أسواق العرب تتنقل في شبه الجزيرة بحيث تضمن تغطية أغلب الأماكن أن لم يكن جميعها، ومن هذه الاسواق ما كان يقتصر نشاطه على ما كان يجاوره من الإحياء والقرى.

وتنقسم الاسواق الى نوعين: فمنها؛ اسواق موسمية تقام في أماكن معينة، مرة في السنة أو الفصل أو الشهر أو الأسبوع، والسنوي أو الفصلي منها أعم وأشيع لارتباطه بالإنتاج الزراعي والحيواني، أما الجماعات الحضرية فعندهم الاسواق الثابتة، لان لكل مدينة أسواقها تباع فيها مصنوعاتها وغلاتها وتحمل اليها ما تحتاج اليه مما تنتجه البلاد الاخرى.

كان رؤساء القبائل والملوك يتنافسون في السيطرة على بعض الاسواق لتصريف بضائعهم وتحصيل الضرائب، ويعكس حضور قريش لهذه الاسواق موقعها الاقتصادي والديني في نفوس العرب، مما يشير الى قوة تحالفهم مع القبائل.